

الكاتب المصري



ديسمبر ١٩٤٦

محرم ١٣٦٦

مجلد ٤ - عدد ١٥

السنة الثانية

ما وراء النهر^(١)

وكان النهر يعلو عليه حديثاً عجبا ، لأنه نهر عجيب بين الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعاً ولا مصباً ، وإنما يروونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول : من أين يأتي ؟ ولا إلى أين يجري ؟ وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره ما عرفوا من أمر الأنهار الأخرى في الأرض فلم يبلغوا من ذلك شيئاً ، ساءروا شاطئه من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، فوجدوا مديناً وقرى ، وصحارى ليس فيها مدن ولا قرى ، ولكنهم انتهوا دائماً إلى غابات كثاف يضيع النهر بينها ، ولا سبيل إلى النفوذ منها ولا إلى تتبعه فيها . وكأنما خلقت هذه الغابات في الشرق والغرب لتعجب النهر عن المستكشفين وتعمى آثاره على المتبعين . وهى تتكاثف وتتكاثف ، ويدنو بعض أشجارها من بعض ، ويلتف بعض أشجارها ببعض ، ويكاد بعض أشجارها يركب بعضاً ، حتى كأن النهر إنما ينبع من بيئة مظلمة أشد الإظلام ، ليصب في بيئة أخرى ليست أقل منها إظلاماً ولا حلوكاً

ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد العجيب من أمر النهر ، وإنما كانت له خصلة أخرى ليست أقل من هذه الخصلة عجبا ؛ فقد عرف الناس أحد شاطئيه وهو هذا الذى تقوم عليه الربوة ، وتنبسط فيه السهول الخصبة المأهولة والصحارى الجدية المقفرة من الشمال . فأما شاطئه الآخر مما يلي الجنوب فقد جهله الناس كما جهلوا منبع النهر ومصبه ، ولم يعرفوا منه إلا شيئين اثنين : أحدهما أن من وراء النهر وعلى أمد منه غير بعيد ، جبالا شاهقة ترتفع في السماء ، وتبعد في في الارتفاع حتى لا يكاد البصر يبلغ قممها إلا في كثير من الجهد والمشقة .

(١) الكاتب المصري عدد ١٤ (نوفبر ١٩٤٦) .

والثاني أن العبور إلى هذا الشاطئ مخوف يملأ القلوب هولاً ورعباً؛ فقد تعارف الناس وتوارثوا منذ أقدم العصور، أن الذين يعبرون إليه لا يعودون، وهم من أجل ذلك لا يفكرون في العبور إليه بل لا يتحدثون في العبور إليه إلا في كثير جداً من الحذر والتحفظ والاحتياط. ولعلمهم لا يذكرونه بالتصريح وإنما يذكرونه بالإشارة والإيماء، بل نشأ عن هذا أيضاً أن الناس كرهوا الدنو الشديد من شاطئه الشمالى المعروف، وآثروا أن يقيموا مدتهم وقراهم على آماد بعيدة منه قد قدرت تقديراً. وما أكثر المدن والقرى التي اتخذت بينها وبين النهر حواجز كثفاً من الشجر، كأنما كان الناس يكرهون حتى أن تبلغ أبصارهم شاطئ النهر الذي يليهم، لا نستثنى منهم إلا أهل هذه الربوة التي أشرفت على النهر وكادت تسعى إليه سعياً؛ فقد كانوا لا يخافون النهر ولا يرهبونه ولا يكادون يخفون به، إما لأنهم كانوا من عنصر ممتاز لا يعرف الخوف ولا الرهب ولا يخجل بما يخجل به الناس، وإما لأنهم كانوا مشغولين عنه بحياتهم الناعمة وعيشهم الغض وتهالكهم على ما يتاح لهم من لذات، وإما لأنهم كانوا أذكي قلوباً وأنفذ بصائر من أن يقفوا عند ما تقف عنده العامة.

ومن يدرى! لعل كل هذه الخصال مجتمعة وخصالاً أخرى غيرها كانت تشغلهم بأنفسهم وتصدم عما يقبل الناس عليه من ألوان التفكير. وكان الشاعر وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يُعنى بهذا النهرويريد أن يستكشف أسرارهِ ويتعمق دقائق أمرهِ. ولكن للشعراء مذاهب في البحث والاستقصاء لا تشبه مذاهب العلماء والفلاسفة إلا قليلاً؛ فلم يكن شاعرنا يتتبع شاطئ النهر ليعرف منبعه أو مصبه، ولم يكن يحاول أن يعبر إلى شاطئه الآخر ليعرف ما وراء النهر، وإنما كان يكتفى حين يتاح له شيء من فراغ بأن يجلس في هذا الجوسق مشرفاً على النهر محدقاً فيه مطيلاً النظر إليه، يسأله ويلج في السؤال، ويستمليه ويسجل ما يعلو عليه.

وكان النهر بخيلاً بأسراره، ضنيناً بدقائقه وحقائقه حتى على هذا الشاعر، مع أن المعروف أن الأنهار تحب التحدث إلى الشعراء؛ فكان الشاعر إذا سأل عن شيء من هذه الأغايز لم يرجع النهر عليه جواباً، وإنما يتحدث إليه عن أسرار أخرى، كانت لشمس تفضي بها إليه في رسائلها الطوال التي كانت تقوِّرها عليه منذ يسفر لصبح إلى أن يظلم الليل، والتي كانت الهجوم تفضي بها إليه في

رسائل خاطفة متقطعة ترسلها إليه حين يغشى الليل ، والتي كان القمر يرسل بها إليه ضوءه الهادئ المستقر بين حين وحين ، والتي كان النسيم يهدها إليه في الليل مرة وفي النهار مرة أخرى ، والتي كانت تعصف بها الريح أحياناً ويقصف بها الرعد أحياناً ، ويخفق بها البرق أحياناً أخرى . وربما أملى عليه بعض ما كانت تتحدث به أمواجه الهادئة المطمئنة من بعض النجوى .
وكان الشاعر يجد في هذه الأحاديث متاعاً ، ويسجل منها أطرافاً يحتفظ بأكثرها لنفسه ، وربما عرض أقلها على أهل القصر فرضوا حيناً وسخروا أحياناً .

وهو في هذه الساعة مقبل على النهر يسأله ويتلقى أحاديثه ، بعينه حيناً إذ يرقب صفحته المضطربة في هدوء ، وبأذنيه حيناً آخر إذ يسمع هذا الخرير الهادئ الذي يشبه نجوى المحبين . ولكن إقباله على النهر لا يتصل ؛ فهذا الخادم قد أقبل يحمل إليه القهوة التي طلبها إليه ، وهو لا يضع القهوة أمامه ثم ينصرف كما تعود أن يفعل في كل يوم ، وإنما يقف صامتاً أول الأمر ؛ ثم يقول : ما ينبغي أن يطول انتظار مولاي لك يا سيدي ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ؛ فقد أنسيت أن أنبئك بأنه كلفني أن أوجهك إليه متى أقبلت ، وما أرى إلا أنه يجهل مقدمك إلى الآن .

قال الشاعر : فدعه يجهل مقدمي حتى أسمى إليه بعد قليل .

قال الخادم : لا تبطئ يا سيدي ، فما أرى إلا أنه شديد الحاجة إلى لقائك ، وأكبر الظن أنه لم ينم من ليلته ، وأن أمراً ذا بال ينغص عليه حياته .
قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال الخادم : لا أدري ! ولكنني أعلم أنه أنفق آخر الليل في مكتبته ذاهباً جائياً ، وأنه لم يصب من إفطاره إلا القهوة ، وأنه كان مكدوداً مجهوداً يتكلف القوة والجلد ، وأحسب أن ابنه الشاب هو مصدر هذا الهم وأصل هذا العناء ، فإن له كما تعلم خطوباً لا تنتهي .

قال الشاعر : حسبك فقد فهمت عنك ، أنبيء مولاك بأنني سأرقى إليه بعد قليل .

ووقف الخادم لحظة لا يقول شيئاً ، ولكنه يدير في نفسه ن هذا الرجل محقق يؤثر حديث الأنهار على حديث الناس ، ثم نظر فإذا الشاعر قد أعرض عنه

وأقبل على النهر ينظر إليه والقلم في يده كأنه يستمليه ، فلم يربدًا من أنه ينصرف متباطئًا وفي نفسه كثير من الغيظ .

وليس من شك في أن حديث النهر كان أحسن موقعًا في نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذي لم يكن ينسئه بشيء جديد . فهو يعلم أن لذلك الفتى المتترف خطوبًا لا تنقضى ، بعضها يحدث في القصر نفسه ، وبعضها يحدث فيما يتصل به من الأجنحة والدور ، وبعضها يحدث في القرية المقيمة في أسفل الربوة ، وبعضها يتجاوز القصر والقرية إلى أما كن قرية أو بعيدة ، وهو يعلم أن هذه الخطوب كثيرًا ما تشغل صاحب القصر وتثير في نفسه ألوانًا مختلفة من الشعور . فهو مرة راض عنها ومبتسم لها ، يرى أن ابنه فتى قد نيف على العشرين ومن حق الشباب أن يلهو ويعبت . وهو مرة ضيق بها منكر لها ، يرى أن للهو حدودًا لا ينبغي أن يعدوها الفتیان مهما يكن حظهم من نشاط الشباب ، وهو مرة ساخط أشد السخط نائر أعنف الثورة ، يرى أن ابنه قد أسرف في تعدى الحدود وتجاوز الممكن من لهو الشباب . وهو إذا بلغ هذا الطور من أطوار الغضب لم يؤثر نفسه بنتائجها وإنما يشيع هذه النتائج من حوله ، ويريد أهل القصر جميعًا على أن يثوروا كما ثار ويسخطوا كما سخط ، ويهرق امرأته من أمرها عسرًا ، يحملها أوزار هذا الفتى الذي لا يعرف القصد ، ولا يستطيع أن يقف نفسه عندما ينبغي أن تقف عنده من الحدود .

يرد ذلك إلى أن أمه لم تحسن تربيته ، ولم تعرف كيف تنشئه ، ولم تستطع قط أن تمتنع عن ندليله وتيسير كل ما يعرض له من أمر عسير . ثم إن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصته وحدهم حين يمورط ابنه في خطيئة من الخطايا ، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه ، يريد أن يشرك الناس جميعًا والأشياء جميعًا فيما يجد . فهو يتجهم للزائرين ويلقاهم بوجه عابس بغیض . ويتحدث إليهم من طرف اللسان ، وما يزال يتكلف من ذلك فنونا وفنونا حتى يضطربهم إلى أف يسألوه عن أمره . فإذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجسام التي يحدثها ابنه الطائش المفتون ، ومضى في أحاديث لا آخر لها ، يجد في ذلك تسرية عن نفسه ، ويجدون فيه إملالا لنفوسهم . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فقد ينبغي أن تقبل الأصدقاء على علاتهم ليقبلونا على علاتنا ، وأن نأخذهم كما هم ليأخذونا كما نحن .

والشاعر بالطبع أشد الناس تعرضاً لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفوات الفتى وزواته وأحداثه التي يحدّثها هنا وهناك ، لمكانه القريب من صاحب القصر . فأى غرابة في أن يفر بنفسه بين حين وحين من هذا الامتحان ، ويخلو إلى نهره هذا العزيز فيسمع منه ويقول له ! وأى غرابة في أن يُعرض عن الخادم حين يريد أن يشق عليه بهذا الحديث فيقفه ثم يصرفه في غير رقة ولا لبن ! أليس يكفيه ما يسمع من السيد ! ألم يبق إلا أن يشقيه الخدم أيضاً بهذه الأحاديث !

كانت أحاديث هذا الفتى إذن معادة مملولة بالقياس إليه على حين لم تكن أحاديث النهر معادة ولا مملولة ، وإن كانت شاقة عسيرة دائماً . فقد كان النهر عصياً ألياً ، يتحدث بما يريد هو لا بما يريده سائلوه . وكان في تلك الساعة يقرأ على شاعرنا ألواناً من رسائل اختلصها من ريح الشمال ، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا ، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم في بعض القلوب من لهيب الحزن والأسى ، وما يزهو في بعضها الآخر من الذكريات ، وما يساور بعض النفوس من يأس يحجب عبور النهر إلى الأحياء الآمنين ، ومن حرص على الحياة يجعل عبور النهر مروّعا مخيفاً .

وكان الشاعر يستمع لهذه الرسائل ، ويستمتع بما فيها استماعاً حزيناً شاحباً يلائم آمال الناس التي لا تنقضى وقدرتهم التي لا تمتد إلى أمد بعيد ، كما يلائم حبهم للحياة وشوقهم إلى من فارقوا الحياة ، وكما يلائم ما يشيع في قلوبهم من هذه القوة الضعيفة التي تعجز عن استبقاء الأشياء فتحتفظ بذكرياتها ، ومن هذا الضعف القوى الذي يأبى أن يسلم الذكريات للنسيان ، فيستبقها وينميها ويتخذ منها وسائل لاستبقاء الحياة وتنمية ما فيها من نعيم قليل واحتمال ما فيها من يؤس كثير .

وقد هم الشاعر غير مرة أن يتقدم إلى النهر في طي هذه الرسائل الإنسانية الممتعة المحزنة ، ونشر رسائل أخرى ليس لها حظ من حزن ولها حظ عظيم من المتاع . فما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه رسائل يسعى بها النسيم بين أزهار الشمال النضرة وأزهار الجنوب الذابلة ! وما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه أنباء السماء تحملها أشعة النجوم أو ضوء القمر أو نور الشمس ! بل ما أكثر ما كان الشاعر يستحب هذه النجوى التي تكون بين أمواج النهر متحللة

بأنباء الشرق ذلك الذى لم يصل إليه أحد ، حاملة هذه الأنباء إلى الغرب الذى لا يصل إليه أحد .

ولكن النهر كان يأبى دائماً أن يقرأ على الشاعر أو يعل عليه شيئاً غير ما يريده هو . وكان الشاعر يجد فى هذا الإياء والامتناع ما يشقيه ويرضيه فى وقت واحد : يشقيه لأنه يبعده عما يحب ، ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه . وهل حياة الشعراء إلا مزاج من الشقاء والرضا ! ولو خيّر الشاعر لاختار أن تتصل خلوته إلى النهر أطول وقت ممكن ، وأن يحتمل من شذوذه واستبداده ما شاء النهر أن يحتمل . ولكن الشاعر لم يكن مخيراً فى شيء . ومتى خيّر الشعراء وأصحاب الفنون فى شيء ! إنما هم عبيد الطبيعة ، تفرض عليهم ما فيها من جمال وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل إليهم أو يخيلونهم إلى أنفسهم أنهم أحرار يستنبطون من الطبيعة أسرارها ويصوغونها فى صيغهم الفنية المألوفة شعراً أو رسماً أو نحتاً أو تصويراً أو غناء أو إيقاعاً .

وليس أدل على ذلك من أن شاعرنا قد كان عبداً لهذا النهر ، ولم يكن يستطيع حتى أن ينعم بهذا الرق ، وإنما كان يصرف عنه من وقت إلى وقت بطارئ يطرأ أو طارق يطرُق . وليس كل الطوارئ يمكن أن يدفع فى يسر . وليس كل الطارقين يمكن أن يردّ فى لين أو عنف . وقد استطاع الشاعر أن يرد الحادم حين هم أن يصرفه عن النهر ، ولكن من له بأن يرد هذا الطارق الذى وضع يده فى رفق على كتفه ونشر فى الجو ضحكا عريضاً وهو يقول فى صوت متقطع : ها أنتذا ! تخلو إلى نهرك لتقول له وتسمع منه . متى تنصرف عن أوهام الشعراء إلى ما يحيط بك من حقائق الحياة !

ويرفع الشاعر رأسه فيرى ابن صاحب القصر قد قام عن يمينه جميل المنظر رائع الطلعة معتدل القامة حاد النظرات ، قد امتلأ قوة ونشاطاً ، وظهر على وجهه المشرق شيء من الجدل الحزين حاول أن يخفيه بهذا الضحك العريض الذى كان ينشره من حوله فى كثير من التكلف .

ولست أخفى على القارئ أنى طائر أشد الحيرة فى أمر هذا الفتى ، كما أنى طائر أشد الحيرة فى أمر أهل الربوة جميعاً ؛ فكلهم يلح على أن أجده له اسماً يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس . وكلهم يلح على أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم إلا إذا عرفت أسماؤهم التى تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من هذا

الوجود الوهمي الذي يشبه العدم ، إلى وجود إلا يكن واقعا كل الوقوع فهو شيء بين بين ، أقرب إلى الواقع منه إلى الوهم ، وأدنى إلى الحقيقة منه إلى الخيال . وكلهم يلج على في ب القدماء الذين عاشوا بين النهرين في بعض عصور التاريخ لم يكونوا مخطين حين كانوا يرون أن اسم الرجل هو أخطر أجزاء حياته ، وحين كان هذا الرأي يذهب بهم إلى شيء من الغلو فيعتقدون أن لأسمائهم إذا نقشت على الجدران حظها من الحياة وحققها في القربان ؛ لأنها تظل حية بعد موت أصحابها ، أو لأنها تختصر وتستجمع ما يمكن أن يبقى من حياة أصحابها . فملا أسماء خطرهما إذن ، ويوشك الرجل الذي ليس له اسم ألا يكون موجوداً . وهم من أجل ذلك يتصايحون في من كل وجه مطالبين بأن أسميتهم بأسمائهم ليستمتعوا بالوجود الصحيح .

وما ينبغي أن تسألني كيف يتصايحون وهم لم يوجدوا بعد ؛ فإنهم يتصايحون على نحو خاص لا يسمعه أحد غيري . ولو أني منحهم أسماءهم لكان من الممكن أن يتجاوز تصايحهم أذني إلى أذنك

وما أظنك تنكر أن الشخص الوحيد الذي استطعت أن تتصوره من أشخاص هذه القصة الذين مروا بك إلى الآن إنما هو شخص البستاني الذي سميت عثمان ، ولو لم أسمه لما تبينته . كما أنك لم تتبين إلى الآن شخص الشاعر على كثرة ما أضفت إليه من الصفات ، ولا شخص هذا الفتى الطارق على ما وصفت لك من منظره الجميل وطلعته الرائعة ووجهه المشرق الوضاء .

فهم لا يتجاوزون الإنصاف حين يطالبونني بأن أسميتهم بأسمائهم . ولكن ماذا أصنع وأنا أشد الناس ضيقاً بابتكار الأسماء ، لا يطاوعني عقلي الضئيل ، ولا خيالي السكليل على هذا النحو من العبث . ثم أنا من جهة أخرى أكره أن أختار الأسماء ؛ لأنني أخشى أن أختار أسماء لها أشخاص قد اتخذوها لأنفسهم ، أو وسعهم بها آباؤهم ، وهذا أبغض الأشياء إلي ؛ فقد أنبأنيك أن هذه القصة لم تقع أحداثها في مصر ، ولا في بلد متاخم أو مجاور لمصر ، كما يقول الناس في هذه الأيام ، وإنما افترضت أن تكون أحداث القصة قد وقعت في أسبانيا ، لأنها وقعت في أسبانيا بالفعل ، فدون وقوعها في أسبانيا خطوب وأحوال ، بل لأن أسبانيا هي الأرض التي تبنى فيها قصور الخيال والتي وجدت فيها تلك الربا التي ذكرها الشاعر الموشح حين طلب إلى السحب أن تجلب تيجانها بالخلي .

من أجل هذا كله أكره أن أسمى أهل هذه الربوة بأسمائهم ، وأخشى بنوع خاص أن يصرف بعض الناس هذه الأسماء وما يرون حولها من الحديث إلى أنفسهم ، فيظنوا أنني قد أردت بهم شرًا وعرضت لهم من قريب أو من بعيد . فإذا عاهدني القراء على أن يؤمنوا أوثق الإيمان فيما بينهم وبين أنفسهم بأن هذه الربوة ليست قائمة في مصر ولا في البلاد المتاخمة أو المجاورة لها ، وبأن أهلها ليسوا بمصريين ولا عربًا ولا شرقيين ، فقد أستطيع أن أجيب أشخاص القصة إلى ما يريدون ، وأهدي إلى كل واحد اسمًا يميزه ويمنحه حظه من الوجود الذي يطمع فيه ويطمح إليه ، وإن كان الوجود في نفسه ليس شيئًا يستحق الطمع فيه أو الطموح إليه .

وليس ينبغي لك أن تظن أنني أمزح أو أداعب حين أغض من قيمة الوجود ؛ فلست أنا في هذا مبتدئًا ولا مبتكرًا ، ولست فيه بدعا من الناس . وما أكثر الفلاسفة ، والشعراء الذين ينكرون قيمة الوجود ويرونه شرًا أي شر ، ويودون لو أنهم لم يدفعوا إليه ، أو لو أنه لم يدفع إليهم .

وأنت تذكر بالطبع أن أبا العلاء تمنى غير مرة لو أن حواء ماتت قبل أن تمنح زوجها الولد أو لو أنها ماتت عقب ولادتها لابنها الأول . وأنت تذكر كذلك أن أبا العلاء ، ومن قبله فلاسفة كثيرون ، كان يرى النسل جنابة لا ينبغي أن يجنبها الرجل العاقل الحازم ، وقد ظن بنفسه العقل والحزم ، فلم يقترب هذا الإثم ، ولم يتورط في هذه الجنابة .

ولو سمع لي أشخاص القصة وقبلوا نصحي لهم ومشورتي عليهم ، لما طمعوا في الوجود ولما طمحوا إليه ، ولما أثقلوا على بهذا الإلحاح في أن تكون لهم أسماء يعرفون بها ، كما أن لغيرهم من الناس أسماء يعرفون بها . ولكن أرسطاطاليس قد أخطأ تعريف الإنسان حين قال إنه حيوان ناطق . ولو قد وفق إلى الصواب لقال إنه حيوان أحق . وليس أدل على حمقه من طمعه في الوجود وطموحه إليه ووجه للحياة .

وما دام هؤلاء الأشخاص قد استوفوا أعظم حظ ممكن من الحق فابوا إلا أن تكون لهم أسماء ، فلنسم الشاعر راغبًا ، ولنسم الفتى نعبًا ، فأما أبوه فلنرجي تسميته إلى أن نلقاه في مكتبه ذلك الذي اتخذ لنفسه سجنا منذ آخر الليل .

قال الفتى للشاعر حين سكت عنه الضحك : قد كنت أبحث عنك لأودّعك ، فقد أزمنت السفر قبل أن يُقبل الليل ، وعزيز على أن أحرم هذه الساعات الحلوة التي أخلو فيها إليك ، فأسمع ما تنشدني من شعرك الرائع الجميل ، وما تقص عليّ من طرائف الأخبار ونوادرها .

قال الشاعر : وإنك لمسافر منذ اليوم ؟ وفيم هذا السفر الذي لم تنبئنا به ولم تهيننا له ، ولم يقدّم القصر بين يديه هذه المقدمات التي تعودت أن تسبق سفرك بأيام طوال ؟

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفي سخرية مرة : فإنها المأساة ياسيدى إنها المأساة ! لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد في حياة القصر كل شيء .

قال الشاعر : وما ذاك .

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم يستبقون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما يبيع لهم من تجاوز الحدود . يرون ذلك سائغاً حين يتصل بأشخاصهم ، ويرونه حراماً حين يتصل بغيرهم من الناس .

قال الشاعر : فإنني لم أفهم عنك إلى الآن .

قال نعيم : ولكنك قد قدّرت من غير شك أن قد حدث في القصر حدث ؛ فأنت لم تلق أُنًى في حديقته هذه الغلباء ، وجنته الفيحاء كما تعودت أن تلقاه في كل يوم قبل أن يرتفع الضحى ، متنقلاً بين زهره وشجره ، ملحاً على بستانيه بالأمر والنهي والسؤال والاستقصاء ، حتى إذا أجهده سعيه وإلحاحه وحركته وسكونه وتشددت أنت عليه في أن يريح نفسه ويريح بستانيه ويريحك أنت من هذا العناء ، أقبلتما معاً إلى هذا الجوسق أو إلى غيره من جواسق الحديقة ، فأنفقتما سائر الضحى فيما تحبان من الحديث .

ولا شك في أنك قد أنكرت تخلف أُنًى عن مواعده ، واحتجابه عن أخص الناس به وأكرمهم عليه . ولا شك أنك قد سألت عن ذلك فعرفت من أنيائه أطرافاً .

قال الشاعر : لم أعرف إلا أنه محتجب في مكتبه ، وأنه طلب أن أوجّه إليه متى أقبلت ، وقد غاظني أن يحتجب الناس بين الجدران وتحت السقوف حين

يصفو الجو ويعذب النسيم ، ويدعوننا الجمال إلى أن نستمتع به في هذه الحديقة الرائعة النادرة ؛ فلم أسع إليه وإنما سمعت إلى النهر ، وكنت أريد أن أرقى إليه بعد ساعة تقصر أو تطول .

قال نعيم : فإن استطعت أن ترقى إليه الآن فافعل ؛ فهو في حاجة إلى من يؤنس وحدته ويسلى عزلته ويبدد عنه هوماً ثقالاً . وما أظن إلا أن حاجته هذه ستتصل وتتصل ، فسأسافر حين يُقبل الأصيل . ولكنني إن أسافر وحدي اليوم فسيتبعني بعد أيام قوم نبت بهم الدار ولم يبق لهم فيها أرب . إنها المأساة يا سيدي ، إنها المأساة ! وإن شئت فقل إنه الجنون واختلاط العقل . ثم سكت لحظة كان يعث في أثنائها بسلسلة ذهبية قد علق بها جماعة من المفاتيح ، ثم قدم إلى الشاعر سيجارة وأشعل لنفسه سيجارة أخرى ، ورمى النهر بنظرة فيها كثير من السخط والغضب ، وأرسل في الجو تنفساً كان يريد أن يكون عميقاً بعيداً . ولكن الفتى تجمل وتحفظ وأبى أن يخرج عن طوره ، فاكتفى بتنفس بعيد بعض الشيء ، وجعل ينظر إلى الدخان وهو يتلوى تلويّاً حفيفاً في الهواء ، ثم قال في صوت هادئ لا يخلو من حنق وسخرية : ومع ذلك فقد كنت أرى أبي إلى الآن مستأنياً حلماً .

قال الشاعر : أمفصح أنت لى آخر الأمر عما تريد ، ومعرض أنت عن هذه الألفاظ ؟

قال الفتى في صوت صاخب : تريد أن أفصح لك ؟ فاعلم أن أبي قد طردني من القصر . وإن لم يكفك هذا فاعلم أنه لم يطردني وحدي وإنما طرد معي قوماً آخرين ، أفهمت ؟ أرضيت ؟

قال الشاعر : لم أفهم شيئاً ولم أَرْضَ عن شيء ، وإنما ازددت جهلاً إلى جهل . وحيرة إلى حيرة . فكيف أقصاك أبوك عن القصر ؟ وفيم كان هذا الإقصاء ؟ وكيف تلقيت أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلم أنه يجده الآن ليهزل بعد ساعة ، وأنه لا يسخط إلا ليرضى ، وأن من العسير حين يستمع إليه خلطاؤه أن يتبينوا أهازيل هو أم جاد ؟

قال الفتى : فأني لا أعلم أن الناس يمازحون بالطلاق .

فوجم الشاعر حين وقعت هذه الكلمة في نفسه ، كما وجم الفتى حين جرى بهذه الكلمة لسانه ، وأغرق الرجلان في صمت عميق كئيب طويل .

قال الشاعر بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقا .
قال نعم : إلى أقصى غايات الخطورة ! سرت بعض سيرته حين كان في سني ،
وما ينبغي أن أقول : سرت بعض سيرته في سنه التي بلغها الآن ؛ فقد يجب أن
يكون الأبناء حراساً على الأدب وحسن الذوق ورعاية اللياقة حين يتحدثون
عن الآباء ، ولكني على كل حال قد سرت بعض سيرته حين كان في سني ،
وأخطأتني التوفيق فلم يتح لي أن أخفي عليه كل شيء ، وما كاد يظهر على بعض
ما فعلت حتى ثارت نائرتي ، فأنكر وسخط ، وأغرق في الإنكار والسخط ، ثم
ارتقى إلى الوعيد والنذير ، وأسرف على نفسه وعلى أهله في ذلك . فقيل له حين
تجاوز طوره : فإن هذا الفتى لم يفعل إلا ما تعود أترابه أن يفعلوا وما كنت
تفعل أنت حين كنت بين العشرين والثلاثين . هنالك لم يضبط نفسه ولم يملك
أمره ، فأرسل كلمته المنكرة ، ثم اندفع إلى شيء يشبه أن يكون جنونا فاقسم
جهد أيمانه لا رآني الليل في قصره هذا ولا على ربوته هذه . فأنا مسافر إذا كان
الأصيل ، وسيلحق بي غيري بعد يومين أو بعد أيام ؛ فقد ينبغي أن أهني
الدار لاستقبالهم في مستقرنا الجديد .

وهم الشاعر أن يتكلم ، ولكن نعيما مضى في حديثه فقال : إنك رفيق
والذي منذ صباه وشريكه في هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقي من أبيه مثل ما لقي
منه ؟ وهل تعلم أنه لم يقبل على بعض لذاته كما أقبل أنا على لذاتي ؟ وهل تعلم أنه
وفق دائما لأن يخفى عنه كله على أبيه ؟ أم هل تعلم أنه كغيره من الناس لها أثناء
شبابه وجدته ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته في اللهو أحيانا ، فأنكروا عليه في
رفق ، ونصحوا له في حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ،
وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا عما أرادوا شيئا .

قال الشاعر في شيء من العنف : حسبك ! فما ينبغي أن تقضي على أتيك .
قال نعم : فهذه هي الجملة التي نسمعها دائما : ما ينبغي أن نقضي على آبائنا ،
وما ينبغي أن نخالف عن أمرهم ، وما ينبغي أن نسوءهم بقول أو فعل ! هذه
خصال فرضتها علينا التربية وفرضتها علينا الأخلاق وفرضها علينا الدين .
ولكن أوافق أنت بأن الحياة لم تفرض على الآباء شيئا بالقياس إلى أبنائهم يلائم
هذه الخصال التي فرضت على الأبناء بالقياس إليهم ؟

قال الشاعر : فدعنا من الفلسفة واستقصاء البحث عن أحكام التربية

والأخلاق والدين ، وحدثني عن هفوتك هذه التي هفوتها جفرت علينا كل هذا البلاء العظيم . أحق إذن ما يقال من أنه قد كانت لك في القرية خطوب ؟ فما عسى أن تكون هذه الخطوب ؟

قال نعيم : وما عسى أن تكون الخطوب التي تحدث لفتى فارغ مترف قد أقبل ينفق أشهراً بين أهله ، فهو يغدو ويروح لا همَّ له إلا نفسه وإلا لذاته القرية والبعيدة ، وكل شيء من حوله يغريه باللهو ويدفعه إليه ! وما أكثر ما يعبت الفتيان فلا تقف حركة الفلك ولا تغير الشمس مجراها في السماء ! إنما هي فتاة من أهل القرية رافق منظرها وقتني سحر لحظها ، فصبت إليها نفسي ، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم . لم أخرج أنا ، ومتى تخرج السيد من اللهو بأحدى إيمائه ! ولم تتحفظ هي ! ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد سادتها ! قال الشاعر مروّعا : حسبك ، حسبك ! لست سيّداً وليست أمة ، وإنما امترت عليها بثروتك ومكانك الاجتماعي ، فأسرفت على نفسك وأسرفت عليها : غررتها فاغترت لك ، وما كان لك أن تتخذها ، وما كان لها أن تتخذ .

قال نعيم : ولكنني خدعتها فأنخدعت .

قال الشاعر : فأنت تجني الآن ثمرة هذا الظلم .

قال نعيم : فإني أود لو أعلم أنكم لا تظلمون أهل القرية ، ولا لعنفون بهم ، ولا تشتطون عليهم ، ولا تظلمونهم أو أنا أخرى من الظلم ليست أقل من هذا الإثم الذي اقترفته خطراً ، ولا أهون منه شأناً ، ولا أضعف منه تأثيراً في حياتهم كلها . إنكم تستذلونهم وتستغلونهم ، وتضطرونهم إلى البؤس وتقرضون عليهم الحرمان ، تكلفونهم ما تكلفونهم من ضروب الجهد والعناء ، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجته ، أخذتم خير ما تشر الأرض على أيديهم فأثرت به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه ، وهم ينظرون إليكم من قريتهم تلك التي توشك أن تكون قطعة من الجحيم ، واتم لاترون بهذا بأساً ، ولا تجدون في أنفسكم منه حرجاً . ولوا استطعتم أن تزدادوا ظلماً لهم وإثقالاً عليهم لما تورعتم عن ذلك ولا زهدتم فيه ، ولكنكم تعصرونهم حتى لا تتركوا فيهم معتصراً ، ثم لا تجدون في أنفسكم إلا الرضا ، ولا تحسون في قلوبكم إلا الطمانينة . تقبلون على هذا مصبحين ، وتقبلون على هذا ممسين ، وتنعمون بثمره هذا بين الصباح والمساء ، وتنامون هادئين غير حافلين بهذا بين المساء والصباح .

وددت لو أعلم أن أهل القرية يجدون من اللذة في استثمار الأرض لكم ورفع ثمرات الأرض إليكم ، واضطرارهم إلى الحرمان والبؤس ، مثل ما وجدت هذه الفتاة من النعيم والرضا حين خدعتها فانخدعت ، وحين غريتها فاستجابت للإغراء .

إني ياسيدى لا أجحد أنى تجاوزت حدود الخلق والدين ، واقترفت إثماً من الحق على أن أمحو آثاره ، ولكنى في سبيل هذا كله لم أظلم ضميتى وحدها ، وإنما ظلمت معها نفسى ، واعترفت بهذا الظلم فأصلحت منه ما استطعت إصلاحه : قدّمت إلى هذه الفتاة كثيراً من الطرف وفنونا من الهدايا ، رفعتها إلى نفسى أو نزلت إليها ، عشنا حيناً من الدهر عيشة سواء لم أكن سيداً ولم تكن أمة ، وإنما كنت عاشقاً خليلاً ، وكانت عاشقة خلية . وأنت شاعر ياسيدى تعرف أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عبداً والعبد سيداً .

حدثنى عما تقدّمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخّروهم في غير رفق ولا لين ، وفى غير محبة ولا مودة ، وفى غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم ، وحين تستأثرون من دونهم بثمره ما يبذلون من جهد ، وما يحتملون من عناء . إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها إلا فقراً ، وبؤساً ، وحرماناً . وإنكم لتعلمون ذلك وتقبلون عليه عن تعمد له ورغبة فيه ، لا تتحرّجون ولا يخطر لكم أن تتحرّجوا ، فإن لا مكم في ذلك لائى أو عابكم عليه عائب دعوتكم بالويل والشبور وعظائم الأمور ، ونظرتى إلى أنفسكم كأنكم الضحايا ، وإلى لا ئمكم والعائين عليكم كأنهم الأعداء المغيرون . فما لكم لا تحلّون الحلال كله ولا تحرّمون الحرام كله ، وإنما تتبعون فيما تحلون وما تحرّمون أهواءكم ومنافعكم لا ما أحلّ الله ولا ما حرّم ! ثم حدثنى أو ائق أنت بأنكم لا تستحلون لأنفسكم حين تسنح لكم الفرص ما تحرّمون على غيركم ؟ أو ائق أنت بأن أبى إنما يسخط على غيره على الحق وغضباً للحرّمات ورعاية للخلق والدين ؟ أما أنا فما أرى أنه يسخط على إلا ضناً بى أن أنزل إلى مكانة دون مكاتى ، وخوفاً على أن أتجاوز بهذا الحب طور المجون واللهو وأرتفع به إلى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الإباء . ولو قد حدثته بأنى أريد أن أتخذ هذه الفتاة لى زوجاً لجنّ جنونه وضل ضلاله . وثق بأنه لم يبلغ من الغضب ما بلغ إلا لأنه أشفق أن أتحدث

إليه هذا الحديث . وآية ذلك أنه لم يلمنى ولن يلومنى حين رآنى وحين يرانى أدعب وألاعب فتيات من أسر ممتازة كأسرتنا الممتازة . إنه يرانى لذلك كفؤاً ، ويرى هذه الأسر موضعاً لصهره ؛ فليس عليه بأس أن رآنى أقع فى شرك هذه الفتاة أو تلك ، ولعله يسعى ويدبر الأمر لأقع فى شرك هذه الفتاة أو تلك . أسرة ممتازة تُصهر إلى أسرة ممتازة ، ومال يجمع إلى مال ، وفتى كريم يقترن بفتاة كريمة . كل هذه أمور ترضون عنها وتسعون إليها ، تمنعون إن انتهت إلى الخير ، ولا تبتئسون إن انتهت إلى الشر من حق الشباب أن يمضى فى طريقه التى قسمت له ، ولكنهم تمايزوا بين الطرق التى قسمت للشباب ، فلأغنياء منهم طريق ، وللفقراء منهم طريق ، وللبائسين منهم طرق لا تحصى .

ثم أطرق الفتى إطرافة طويلة لم يكده الشاعر يتنبه إليها ؛ لأنه كان مغرقاً فى الذهول منذ اندفع الفتى فى حديثه هذا الجرى العنيف الطويل . ورفع الفتى رأسه بعد حين باسمًا للشاعر وهو يقول : عُددْ إلى نفسك أو أُعدْ نفسك إليك ؛ فليس فى الأمر ما يدعو إلى هذا الوجوم . إن الأمر أيسر جداً مما تظن . إنى خدعت خديجة ابنة الخدء فأنخدعت ، ودعوتها فاستجابت . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما سخط أبى ولا ثار ، ولكان من اليسير أن نرضى الفتاة ببعض الهدايا ، وأن نرضى أباهاً ببعض البر أو ببعض الابتسام ، وكان من اليسير أن أسافر فأطيل الغيبة فأنسى أنا وتنسى هى ، ويلتمس لها الزوج من طبقته هنا أو هناك ، ويلقى الستار على مأساة تحدث الآلاف من أمثالها فى كل عام . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وقعت الفتاة من نفسى موقعاً خاصاً ، واستقر جها فى قلبى استقراراً مكيناً ؛ فلست أرى من الاقتران بها بدءاً . ولم أتحدث بذلك إلى أبى ، ولكنه أحس ميلى إليه وتفكيرى فيه . نهانى عن هذه الفتاة فلم أنته ، وأغرانى بغيرها من بنات طبقتنا فلم يكن لإغرائه فى نفسى صدى ، ثم أذدر فلم يغن النذير ، وحذّر فلم ينفع التحذير ، فقال كلمته التى قالها ، وفعل فعلته التى فعلها حين أخرجه الغضب عن طور العقلاء .

وقد قلت لك آنفاً إني كنت أبحث عنك لأودعك قبل الرحيل . وهذا حق ، ولكن هناك حقاً آخر لم أقله لك ، وقد كنت أبحث عنك لأقوله لك أيضاً . وبعد فإني سأسافر إذا دنا الأصيل ، وسيتبعنى قوم آخرون ، ولكن هناك قوما آخرين

قد سبقوني إلى السفر ، وسألقاهم في العاصمة . ولن يمضى الأمر بيني وبينهم كما مضى إلى الآن ، ولكنى سأأخذ خديجة لى زوجا . فإن استطعت وإن أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير إلى أبى فى رفق ، فافعل ، وإن عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيها ولا لين .

وهمّ الشاعر أن يقف الفتى وأن يجادله فى بعض هذا الأمر ، وأن يرده إلى شىء من الرشد ، ولكن الفتى اندفع فى حديثه لا يلوى على شىء قائلاً : لا تتكلف مشقة ولا جهداً فى إقناعى بغير ما تمت عليه ، فإنك لن تبلغ من ذلك شيئاً . وإذا لم يكن بد من أن تبدل الجهد وتحتمل المشقة فافعل ذلك فى العناية بهذا الشيخ الذى سيعيش وحيداً فى قصره هذا الفخم الضخم بعد أن ينصرف عنه أهله ، وفى إعداد مرفقاً به لتلقى هذا النبأ الذى سينتهى إليه بعد أيام ما أظنها ستطول . وهنا صمت الفتى لحظة ، ثم لم يلبث أن اندفع فى ضحك متصل ، ولكنه ضحك لا يخلو من حزن ، ثم قال : وأكبر الظن أنك لن تحتمل كثيراً من العناء فى تعزية الشيخ عن هذه الخطوب ؛ فانه شيخ قد احتفظ بفضل من شباب . وما أشك فى أن الملل قد وجد إلى نفسه سبيلاً ، وما أشك فى أنه يدير فى رأسه أمراً ذا بال ، وما أشك فى أن هذه الكلمة البغيضة التى انطلق بها لسانه حين تقدم الليل قد مدت له أسباباً وفتحت له أبواباً .

ثم وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب دفعاً وانحنى على الشاعر فألقى على رأسه قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوى على شىء .

وظل الشاعر واجماً لحظات ، قد أخذه شىء يشبه الدوار لكثرة ماسمع ونقل ماسمع ، ثم ثابت نفسه إليه شيئاً فشيئاً ، وأراد أن يلقي نظرة إلى النهر ولكنه رأى نفسه ينهض متثاقلاً ، ثم يرقى إلى القصر متباطئاً وقد أنسى عادته الحبيبة إليه فلم ينحن على العصا ، ولم يمش على ثلاث .